مهاتما غاندي

سيرته بقلمه

ايام المدرسة

عقدت اواصر الصداقة بيني وبين أحد اقراني في التلمذة ، وكان معروفاً عنهُ انهُ غير مستقيم الاخلاق فحذرتني والدتي منهُ وحذرتني زوجي. ولكني كنت من الكبر بحيث لا اخضع لنصائح زوجي ، وحاولت لاول مرة ان اعمل على الضد من ميول ابي . كثيراً ما قالتا لي اني مع قرين سوء . ولكن اجبتهما « اني اعرف صديقي فيهِ المعايب التي تذكرانها ولكنكما لا تعرفان فضائله . وانه على ذلك لا يستطيع ان يفسد اخلاقي ويقودني في طريق الرذيلة، لاني انما اقصد بصداقتهِ ان أقوّم معوجه على اعتقاد انهُ اذا استقام اصبح من احسن الرجال . واني لأرجو ان لا تشفقا من مصاحبتي اياه » . وكان هذا الجادث اول ما حاولت ان اكون مصلحاً في ناحية من نواحي الحياة

لم تقنعا بما قلت ، ولكنهما تركتاني اقطع شوطي . فلم البث غير قليل حتى استبان لي ان حسابي قد طاش ، وعرفت ان من يريد ان يقوّم اعوجاج شخص لا يجب ان يكون على علاقة حبية بهِ ؛ ولأن الصداقة الحقيقية صفة نفسية قلما توجد في هذه الدنيا . ان الصداقة لن تكون ذات قيمة ولن تدوم الا بين الطبائع المؤتلفة . والاصدقاء يؤثر بعضهم في بعض تأثيراً عكسيًّا . ولذا لا يكون من مجال لان يصلح صديق من معايب صديقه او يؤثر في اصلاح نقائصه . ورأيي ان الانسان يجب ان يبتعد عن الارتباط بعلاقات عاطفية مع الناس، لانهُ بذلك انما يكون اقرب الى التطوح مع الرذيلة منهُ الى اتباع الفضائل . وان الذي يريد ان يعقد صداقة مع الله ، يجب اما ان يظل وحيداً ، واما ان يعقد صداقتهُ مع الدنيا كلها. وقد اكون مخطئاً، ولكن التجربة دلتني على ان محاولتي في عقد صداقة اخلاص، كانت فشلاً مؤلماً

كانت تجتاح « راجكوت » في ذلك العهد عاصفة من « الاصلاح » !!! — فقال لي صديقي يوماً ان كثيراً من مدرسي مدرستنا يأكلون اللحم ويعاقرون الخمور. ولم يكتف بهذا بل ذكر اسماء رجال معروفين من « راجكوت » قال انهم يفعلون ذلك . فعجبت من الامر وسألتهُ السبب في هذا : فقال لي ما يأتي : — « نحن امة ضعيفة لاننا لا نأكل اللحم،

والانجليز قادرون على حكمنا واخضاعنا لانهم من اكلة اللحوم . وخذني مثلاً . فانك تعرف مقدار اصطباري وتجلدي واحتمالي المشقات فوق اي عداء معروف . والسبب في هذا اني آكل اللحوم . والذين يأكلون اللحوم لا يصابون بفساد الدم، واذا جرحوا التأمت جروحهم سريعاً . ولا يمكن ان تتهم مدرسينا وغيرهم من الرجال النابهين ممن يأكلون اللحم بأنهم مغفلون . انهم يعرفون ما لهذه العادة من فضائل . وانهُ لواجب عليك ان تقتص أثرهم . فليس في الدنيا مثل التجربة . جرّب وأنت تعرف مقدار العافية الذي يلابس جسمك »

كان اخي الاكبر قد وقع في الخطيئة ، فأيده وحاول اقناعي ، بأني ضعيف الجسم وهو قوي . وكان صديقي متفوقاً في العدو الى مسافات بعيدة وقادراً على الوثب العالي الى درجة مدهشة . فكان هذا سبباً في ان اميل الى تصديق ما يقول . ولماذا لا اصبح قوياً مثله؟

كنت جباناً . كان يغشاني الخوف من اللصوص والاشباح والافاعي . ولم اكن اجرؤ على ان اخرج من البيت اذا اظلمت الدنيا وناء الليل على الوجود . كانت الظلمة تفزعني . وكان من المستحيل عليَّ ان انام في الظلام ، لاني كنت اتصور اذا اظلمت الدنيا من حولي ان اللصوص آتون من ناحية والاشباح من اخرى والافاعي من ثالثة . فكان لا بد من ضوء في حجرتي . وكانت زوجي اكثر شجاعة مني ، فكان هذا يخجلني . لم تكن تعرف خوفاً من اشباح او افاعٍ ، وكانت تذهب حيثما شاءت في الظلام . وكان صاحبي يعرف فيَّ هذا الضعف ، فكان يقول لي انهُ يستطيع ان يمسك في يده أفاعي حية ، وان يقارع اللصوص ، وانهُ لا يعتقد وجود الاشباح . وان كل هذا راجع الى انهُ من أكلة اللحوم

كان لكل هذا أثره في نفسي فهزمت . وبدأت نفسي تحدثني بأن أكل اللحوم خير ، وانهُ سوف يجعلني قوياً شجاعاً وان اهل الهند اذا اعتادوا اكل اللحم استطاعوا ان يتفوقوا على الانكليز ويطردوهم من بلادهم

حددنا يوماً لنبدء في هذه التجربة . وعزمنا على ان نبدأ بها في الخفاء . فان «الغانديين» من الفايشنافا — Vaishnavas — وأبواي من اشد الناس استمساكاً بعرى العقيدة . ومما يدل على هذا ان للاسرة معابدها الخاصة بها ، وكانت العقيدة « الجانيّة » Jainism (١) عظيمة الاثر في «جوجرات» ، والامتناع عن اكل اللحوم كعقيدة دينية يستمسك بها اهل الجانية والفايشنافية لم تظهر في طرف من اطراف الهند بما ظهرت به من قوة الاثر في «جوجرات» . وهذه هي العقيدة التي شببت في احضانها وتحت سلطانها . أضف إلى ذلك

(١) ظهرت العقيدة الجانية في الهند في نفس الوقت الذي ظهرت فيه البوذية . ومن مبادئها الاساسية عدم الاعتداء على الارواح وسلب اشخاص نعمة الحياة . وكانت هذه العقيدة من اشد العقائد اثراً في نفوس الهنود منذ ازمان طويلة

اني كنت شديد الاحترام لأبويَّ كثير الخضوع والولاء لهما . وكنت على يقين من انهما يموتان توًّا اذا علما اني آكل اللحوم واني انتهك حرمة العقيدة المقدسة . وكان حبي للصدق والحق يجعلني شديد الاباء . ولم يكن في وسعي ان انكر على نفسي واغالطها في حقيقة اني بأكل اللحوم اغش والديَّ واني اسوءه عليهما . ولكن عقلي كان يتجه الى «الاصلاح» . لم يكن الامر عندي راجعاً الى ارضاء شهوة البطن . بل كنت اريد ان اصبح قويًّا شجاعاً متين العضلات مشدود الاصلاب ، وان يصبح بقية اهل الهند على هذه الصورة فتستطيع ان تهزم الانكليز وان تحرر الهند . ولم اكن حتى ذلك العهد قد سمعت كلمة « سواراج » (الحكم الذاتي) ولكن كنت اعرف ما معنى الحرية . ولقد اعماني حب «الاصلاح» كما كان احتياطي في ان آكل اللحم سرًّا ، سبباً في ان اضوح مع الوهم فأقول في نفسي ان اخفاء الفعل عن ابويَّ كاف في ذاته لان يجعل فعل الشر بعيداً عن ان يكون تناقضاً مع الصدق وحب الحق

وآذنت الساعة . وانهُ ليصعب عليَّ ان اصف حالتي وصفاً صحيحاً . اكتنفني من ناحية حب « الاصلاح » ، ومن ناحية اخرى جدة امرٍ عاري في فعله استدباراً لعهد واستقبالاً لعهد آخر في الحياة ، ثم التخفي لاتيان فعل شأن اللصوص . ولكننا ذهبنا معاً نفتش عن مكان منفرد بجوار النهر ، وهنالك رأيت اللحم لاول مرة في حياتي . وكان معنا خبز صنع على الطريقة الانكليزية . فلم استذوق شيئاً منهما . فاللحم كان في فمي كأنهُ جلد شديد التماسك ، فلم استسغهُ ، وشعرت بأني مريض فتركت المكان في الحال

امضيت بعد ذلك ليلة شديدة الوطأة . اعتراني كابوس مخيف فكنت كلما هممت بأن انام خيل اليَّ ان عنزاً مذبوحاً ينزف دمهُ يتخبط بجواري فأهبُّ مرعوباً فزعاً وفي قلبي اشد ما يمكن ان يتصور من الم الضمير

ولكن كنت اذكر نفسي بأن ما فعلت كان واجباً ، فتروح هذه الفكرة عني بعض الشيء ، واستعيد شيئاً من صفاء النفس . ولم يكن صديقي من الذين ينثنون عن عزمهم بسهولة . فأخذ يطهي الواناً من الطعام يجعل ظهور اللحم فيه اقل تعرضاً للنظر . ثم تدرجنا من ذلك الى الأكل في مطعم فاخر الرياش ، كان صديقي على معرفة بطاهيه ، بدل أن نعتزل على بقعة مهجورة من شاطئ النهر

وقلَّ بعد ذلك ان اتناول طعامي في البيت ، فكنت اعتذر لأمي كلما جهزت لي طعاماً باني مضطرب المعدة واني مريض . وكنت اشعر باني اكذب واني اكذب على امي ! وكنت اعلم ان ما من شيء في الحياة يؤثر في نفس والديَّ ما يؤثر فيهما معرفتهما باني اصبحت من أكلة اللحوم . فكانت هذه الفكرة تنهش قلبي ولا تريح ضميري ساعة واحدة . وما بلغت

هذه الحالة حتى اخذت نفسي تحدثني قائلة — « انه وان يكن من الواجب ان آكل اللحوم، وان اتناول هذا الطعام ابتغاء « الاصلاح » ، فان الكذب على الابوين وغشهما أنكر من الامتناع عن اكل اللحوم . فيجب اذن ان لا اعود الى هذا العمل ما دام ابواي على قيد الحياة ؛ فاذا طواهما التراب ، فهنالك أكون حرًّا ، فآكل اللحم علناً بدون خشية . ولكن قبل ان تحل تلك الساعة ، فلامتنع عن اكل اللحوم » . ومنذ تلك الساعة لم اذق اللحم ابداً . ولكن العظة الصحيحة هي اني حاولت ان اصلح فاسداً ؛ ففسد صلاحي، من غير ان اشعر بأني كنت سائراً نحو التردي في هذه الحمأة الدنيئة

وتعدى تأثير هذه الصداقة الى علاقتي الزوجية وأمانتي لزوجي . اخذني صديقي يوماً الى ماخورة من مواخير المومسات، ودفع عني الاجر المطلوب . ولقد زودني بالنصائح اللازمة واحكم الترتيب كل احكام . هأنذا اخذت اتردى بين انياب الرذيلة ، ولكن الله الرحيم رحمني من نفسي وصانني من غوايتها فردني اعمى اصم في تلك الماخورة وخرجت منها من غير أن اتلوث بخطيئة العمل . شعرت بان رجولتي قد جرحت وان الارض تميد بي لتبتلعني ، غمًّا وخجلاً . ومنذ تلك الساعة لا اذكر الحادثة الاَّ ارسلت من قلبي يشكر ان حار الى الله جزاء ما صرفني عن هذا العمل الشنيع . واني لاذكر اربع حوادث من هذا النوع في حياتي، خلصني الحظ لا قوة الارادة في الفرار من الوقوع في خطيئتها . اما اذا نظرنا في مثل هذه الحوادث من الوجهة الاخلاقية الصرفة ، فلا يمكن ان نعتبرها اكثر من غيبوبة ادبية ، تموت فيها المشاعر والعقائد . فلك لاني اعتقد ان تحرك الشهوة البدنية لا تقل نقصاً عن اتيان الفعل نفسه . اما اذا نظرنا فيها من وجهة الحياة العادية فان الرجل الذي يفر من ارتكاب خطيئة يعتبر ناجياً، ولا اشك في اني لم اعتدُ هذه القاعدة في تجاربي التي جرت هذا المجرى . وفي الحياة افعال يعتبر الفرار من اتيانها عناية الهية تنجي الشخص والذين هم حوله من الناس. وبمجرد ان يرتد الانسان الى مشاعره ويستيقظ ضميره ، فانه لا يتوجه في الحياة الى شيء اللهم الاَّ الى المراحم القدسية يشكرها على فراره من العصيان . واني لاعلم ان الانسان قد يخضع للغواية وقد يستقوى عليه الايحاء والاغواء فيخطىء ، ولكن كثيراً ما تتدخل العناية العليا في شؤون الكثيرين فتنقذهم رغم انوفهم . اما كيف يحدث ذلك ؟ والى اي حد تذهب حرية الانسان ؟ والى اي حد يخضع الانسان لحكم ما هو قائم من حوله ؟ واما كيف يتغلغل القدر في مسارح الحياة الانسانية، فذلك سر غامض ، وسيبقى سرًّا الى الابد

كل هذا لم يكن كافياً لان يفتح عيني على شيء من رذائل صديقي وخطر مصاحبته . وكان هذا العمى النفسي سبباً في ان اجرع بضع جرعات مريرة قبل ان تتفتح عيني على شيء من نقائصه ، عبرت عنها افعال جاءت عرضاً وعلى غير انتظار . كان صديقي احد الاسباب

الاساسية التي قامت لاشعال نار الخلاف بيني وبين زوجي. فقد كنت زوجاً محباً غيوراً، وعرف في صديقي هذه الصفات، فاخذ يزكي أنار الكامنة ليشعلها ويرسل بلهبها في صفاء الاسرة قويّاً محطماً. ولم أكن اشك في صدقه. غير أني حتى اليوم لا استطيع ان اغفر لنفسي ما ارتكبت من قسوة ازاء زوجي، وجرائمي التي تحملتها صابرة، ولم يكن لها من سبب الا اخبار صديقي هذا. وليس في العالم من يحتمل ما فعلتُ مع زوجي الا الزوجة الهندوكية، وهذا هو السبب في اني اعتبر المرأة معنىً مجسماً من التسامح. فخادمك يترك خدمتك، وولدك يفر من تحت سقفك، وصديقك يقطع معك علاقتهُ. اما الزوجة، حتى اذا شكّت في زوجها وملأتها الريبة، فانها تظل هادئة. ولكن اذا شك فيها الرجل، فهدمها ثمن الشك، وسقوطها وتشردها مرهون الريبة. الى أين تذهب؟ ان الزوجة الهندوكية لا تستطيع ان تطلب الطلاق في محكمة. ان القانون لا يحميها. ولن اسامح نفسي او اغفر لها خطيئة اني كنت سبباً فيما تصل الحال بزوجي الى هذا المآل مآل اليأس والقنوط

ان سرطان الشك لم تقتلع جذوره من نفسي الا بعد أن فهمت «الأهمسا Ahimsa» (١) مع كل ما يرتبط بها من العلاقات والاعتبارات. هنالك رأيت عظمة البراهماشاريا (٢) —Barahmacharya— وتحققت ان الزوجة ليست رقيقة للزوج، بل رفيقة ومعينة في الحياة، وان لها حق ان تقتسم مسراته واحزانه، وانها حرة كالرجل في ان تختار ما يلذ لها في الحياة من سبل الحياة. واني كلما ذكرت تلك الايام السوداء، ايام الشك والريبة، ملأني الحزن العميق والالم المحض تلقاء ما كنت فيه من الغفلة والتهاب الشهوة والقسوة، واحتقر تلك الثقة العمياء التي وضعتها في صديقي

حدث في ايامي المدرسية وقبلها بقليل اني اخذت واحد اقاربي نعكف على عادة التدخين. لم نكن ندري ما هو التدخين، ولكني واياه تصورنا انهُ في ان نرسل بالدخان فيخرج حلقات كالسحاب في الهواء لذة. وكان عمي من كبار المدخنين. وكنا كلما رأيناه يدخن، حاولنا ان نحتذي حذوهُ. ولكن لم يكن لدينا نقود. فاخذنا نلتقط اعقاب السجاير وندخنها. لم يتيسر لنا ان نجد الاعقاب دوماً ولم يكن فيها من الدخان ما يكفي لتحقيق غرضنا. فبدأنا نسرق بضعة دريهمات من جيب الخادم لنشتري بها سجاير هندية. واين نخبئها؟ كانت هذه المشكلة سيأتي

---

(١) الاهمسا بالمعنى الطريق البراهمي وعدم استعمال العنف. وهي في هذه المعنى تعادل معنى الحب. والتي يظهر من هذه الفكرة ان عدم التعاون والعصيان المدني مع الامتناع من استعمال العنف وهي الوسائل الاساسية التي يستخدمها غاندي لمقاومة الاستعمار الانجليزي في الهند، مشتقة اصلاً من مبادئه دينية صرفة

(٢) البراهماشاريا بالمعنى الحرفي الطريق الخلق التي يؤدي الى الاتصال بالاله. ومن أركانه ضبط النفس والعفة والتقشف

ان ندخن بعض اوراق الاشجار التي سمعنا انها يمكن ان ترسل الدخان كما يرسل التبغ . فجمعنا منها قدراً واخذنا ندخنه . غير ان حب الاستقلال اخذ يأكل في قلبينا ، لان خوفنا من ان ندخن امام من هم اكبر منا سنًّا ، جعلنا نشعر بان هذه الحياة لا قيمة لها من غير ان يكون الانسان حرًّا مستقلاً بذاته . وفي النهاية وكرهاً لهذه الحياة صممت وقريبي هذا على ان ننتحر

ولكن كيف ننتحر ؟ ومن اين نحصل على السم؟ سمعنا ان بزور الداتورة سم ناقع . فذهبنا الى الغابة نبحث عن حبها وجمعنا شيئاً منهُ ، وحددنا المساء لارتكاب جريمة الانتحار . فذهبنا الى معبد «كيدا رجي مندير» ووضعنا زبداً سائلاً في مصباح المعبد ، وزرنا المقام الاقدس ، ومن ثم اخذنا نبحث عن زاوية منعزلة . غير ان الشجاعة خانتنا . قلنا لنفرض اننا لم نمت نتوًّا؟ وما هو الخير الذي نجنيه من ان ننتحر ؟ لماذا لا ننتقل باقفسنا ونكفيها شر الموت ؟ ومع كل هذا اردرد كل منا حبتين او ثلاثاً ، ولم نجرؤ ان نزدرد اكثر من هذا العدد . ولم نكد نزدرد الحبات حتى تملكنا شعور الخوف من الموت . فهرعنا الى المقام الاقدس ، وعاهدناه على أن لا نرجع الى تنفيذ فكرة الانتحار وان نقلع عنها . والحق ان تنفيذ الانتحار ليس سهلاً كتصوره . وما سمعت منذ تلك الساعة شخصاً يهدد بالانتحار ، الا واعتقدت انهُ بعيد عن الجد وانهُ الى الهزل اقرب

لقد صرفتنا فكرة الانتحار عن تدخين اعقاب السجاير وعن سرقة نقود الخادم . لم أدخن بعد ذلك قط . واخذت هذه العادة تلوح لي كأنها ضرب وقذارة . وكلما فكرت في الامر لا استطيع ان اعرف السبب في انتشار عادة التدخين هذا الانتشار المريع في كافة انحاء العالم . واني لاختنق اذا سافرت في قطار عبق جوه بدخان التبغ واشعر شعوراً عجيباً بحاجتي الى الهواء الطلق النقي

لم تكن جريمة سرقة الخادم آخر سرقة ارتكبتها . اما السرقة الثانية فحدثت ولي من العمر خمس عشرة سنة . فان اخي الذي اغواني وصديقي على أكل اللحم كان قد استدان خمسة وعشرين روبية وكان بيده حلية تتدلى منها قطع من الذهب ، فسرقت قطعة منها وبعتها ودفعت عنهُ الدين . ولكن هذا لم يكن مما يمكن احتماله على نفسي . فصممت على ان لا اسرق مرة اخرى . وحاولت ان اعترف لابي ، ولكن لم اجرؤ على الكلام . لم امتنع خوف ان يضربني ابي ، فاني لا اذكر انهُ ضرب واحداً منا طول حياته ، ولكني خشيت الالم الذي احدثه في نفسه باعترافي . واخيراً صممت على ان اكتب الاعتراف بيدي ، وارسل به الى ابي طالباً منهُ العفو والغفران . فكتبتهُ على قصاصة صغيرة وسلمته اليهِ يداً بيد . ولم اعترف بجريمتي فقط ، بل طلبت منهُ ان يعاقبني عليها ، ورجوته ان لا يعاقب هو نفسه بالاسترسال مع الحزن والالم ، ووعدته بان لا اسرق مرة اخرى

كنت اهتز رعدة من مفرق رأسي الى اخمص قدمي لما قدمت له الاعتراف ، وكان يشكو ناسوراً حاداً وكان مستلقياً على فراشه الذي لم يكن سوى دكة من الخشب الصلب . فلما قرأ الورقة تساقطت الدموع من عينيه كاللآلئ البيضاء حتى بلت الورقة ، ثم اغمض عينيه برهة مستغرقاً في لجة من الافكار ثم مزق الورقة . فبكيت لبكائه ولألمه . ولو كنت فناناً اذن لرسمت صورة رائعة من هذا المنظر ، فانهُ لا يزال حيًّا في خاطري كما وقع تماماً . ولقد طهرت تلك الدموع البريئة قلبي وغسلت خطيئاتي . ولن يدرك هذا الحب الا من يكابده

كان هذا الدرس بمثابة وضع قواعد « الاهمسا » موضع التطبيق . لم استذوق من هذا الدرس في ذلك العهد الا انهُ عطف أبوي اما اليوم فاني اعتقد انهُ « الاهمسا » في براءته وطهره . فان الاهمسا اذا احاط وتغلب ، فانه يغير كل شيء يمسه . لاحدَّ لقوته ، ولا نهاية لاثره . ان ابي لم يكن من التسامح بحيث يذهب به حب المغفرة الى الحد الذي وصل اليه . ظننت انه سوف يغضب وانما غضبه سوف يلتهب ، فيرسل بكلمات جارحة ، وانه سوف يضرب جبينه بيده . ولكنه كان هادئاً . واني لاعتقد أن هدوءه كان راجعاً الى صراحة اعترافي . وان اعترافاً بريئاً مصحوباً بوعد صريح بعدم العودة الى ارتكاب الجرم ، اذا تقدم به المجرم الى الشخص الذي يحق له ان يتقبل هذا الاعتراف ، لانه صورة من صور التوبة . ولقد شعرت بان اعترافي قد طيب نفس ابي وانه اصبح واثقاً بي وزاد حبه لي وعطفه عليَّ

كنت اذ ذاك في السادسة عشرة من عمري . وكان ابي مريضاً طريح الفراش ، يقوم على تمريضه خادم عجوز وأمي وأنا . وقمت له بعمل الممرضة ، فكنت اغسل جرحه واضمده واعطيه الادوية كلما حان وقت تناولها . وكنت أكبُّ كل ليلة على تدليك قدميه ورجليه ولا اذهب الى فراشي الاَّ بعد ان يأذن لي ، او بعد ان يأخذه النعاس . وكانت هذه الخدمة عزيزة عندي شيقة لديَّ . ولا اتذكر مطلقاً اني اهملتها ، بل كنت اصرف كل وقتي بعد المدرسة في العناية بتمريض ابي . وما كنت اخرج الى النزهة قليلاً الاَّ اذا اذن لي ، او شعر بانه احسن حالاً

وأذنت الساعة الرهيبة . وكان عمي في « راجكوت » واذكر انه اتى على عجل عند ما علم باشتداد العلة على اخيه ، وكان ينام بجواره ويمرضهُ بنفسه

كانت الساعة الحادية عشر ، وكنت ادلك قدمي والدي ، ثم آويت الى حجرتي ، ولكن الخادم طرق الباب بعد بضعة دقائق معلناً ان ابي كان في شدة المرض . ولكني شعرت شعوراً عميقاً عما يختفي وراء هذه الجملة من المعاني . وسرعان ما صدق حدسي ، فان والدي كان قد فارق الحياة